دراسة للحالة السياسية في الهند
من خلال شعر شاه عبد العزيز الدهلوي

خواجه محمد خيال محمد العصامي

أهمية هذه الدراسة:

تكمن أهمية الموضوع في أن حياة شاه عبد العزيز الدهلوي بدأت في وقت التقهقر السياسي للمسلمين في شبه القارة الهندية؛ وقد بدأ الاحتكاك العسكري بينهم وبين الإنجليز عام ١٧٥٧م في معركة "بلاسي" الشهيرة.

ولد شاه عبد العزيز وعاش حياته بين عامي ١٧٤٦م ـ ١٨٢٤م، وقد قدم الإنجليز إلى شبه القارّة في شكل شركات تجارية طمعاً في خيرات البلاد واستعباد العباد، وقد حصلت هذه المزاولة التجارية بإذن سلاطين المسلمين حين كانت الدولة المغولية في قوّتها، ولكن عندما ضعف نفوذ الدولة بسبب اختلاف الحكّام والأمراء على تولي سدة الحكم في البلاد، والتقاتل والتناحر فيما بينهم، لعدم وجود رؤيةٍ سياسيةٍ واضحةٍ في تعيين الأمراء، تجرّأ الأمراء المحليون في الأقاليم واستقلوا عن الدولة المغولية بالحكم، وحمي وطيس الاستباق للاستيلاء على أكبر قطعةٍ من الأرض من قبل كلِّ حاكمٍ أو أميرٍ.

عند ذلك رأى الإنجليز أن الفرصة مواتية للانقضاض على أملاك الدولة المغولية، وذلك بسبب التفرق والتشرذم السياسي للمسلمين، وظهر لهم أنالحكّام والسلاطين لا يهمّهم المصالح العليا للأمّة بقدر ما يَهمُّهم الحفاظ على عروشهم وكراسيهم وتيجانهم، وقد رأى شاه عبد العزيز الواقع المرّ والأليم للمسلمين بنفسه وعايش الأحداث، فبدأ يراسل آخر ملوك المغول للتنبيه على الأخطار التي تحدق بالمسلمين؛ ولكنّه لم يستجب لكثير من رسائله مما جعل شاه عبد العزيز في حال من الاستياء من هؤلاء الملوك والأمراء، فكان لآرائه صدى وصوت ذو أثر كبير بين المسلمين في شبه القارّة الهندية، وكيف لا وهو ابن الداعية والمصلح شاه ولي الله الدهلوي، وكان الناس يتطلعون إليه بصفته عالماً ملمًّا بالأحداث

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

السياسية التي كانت تجري على الساحة، فكان عنده من الفتاوى والآراء ما يصدره بين الفينة والأخرى ضد الاستعمار؛ وإن كان قد رجع عن بعضها، فما أهمية هذه الآراء والفتاوى الفقهية لنا في هذا العصر، وخاصة أن الأحداث والوقائع متشابهةٌ ومتضارعةٌ، فدراسة آرائه، سواء أكانت في شكل رسائل كتابية أو خطب، أو أعمال أدبية شعرية ونثرية، تعطينا التصور الكامل عن واقع المسلمين والاستعمار في تلك الحقبة من الزمن، وماذا عسى أن نستفيد من تلك الآراء الفقهية في زمننا هذا؟

ثم لا ننسى أن شاه عبد العزيز قد تربّى وتعلم على يد والده العلوم الشرعية، وكان لوالده الشيخ ولي الله صيتٌ علميٌّ وشهرةٌ سياسية واسعةٌ لأفكاره الإصلاحية في أوساط العلماء في شبه القارّة الهندية، فهو وابنه من بعده محور جميع الحركات الإسلامية التي خرجت ضد الاستعمار في شبه القارّة الهندية، فالكُلُّ كان يستقي من أفكارهما بطريقةٍ أو بأخرى، وهذا التأثير يُرى واضحاً في أفكار الجماعات والحركات الإسلامية الموجودة على الساحة في شبه القارّة الهندية حالياً.

وفتاوى شاه عبد العزيز الدهلوي وخطبه وأقواله التي تحدث بها في المجالس وتأليفاته وكتاباته الشعرية والأدبية لها أكبر الأثر ولا تعكس فحسب آراءه الفقهية الشخصية في جميع جوانب الحياة، بل تعكس أفكار معاصريه وآراءهم كذلك. إذاً فأعماله العلمية وفتاواه وأقواله، وإسهاماته الأدبية تعدّ بمثابة مصادر للدارسين للاطِّلاع على هذه الآراء والأفكار العلمية والفقهية بل وآراء معاصريه.

اسمه ونسبه ولقبه وولادته:

هو عبد العزيز بن ولي الله بن عبدالرحيم العمري الدهلوي، لقب بسراج الدين، ولد ليلة الخميس لخمس ليال بقين من رمضان سنة ١١٥٩هـ، واسمه عند ولادته غلام حليم[١].

حياته العلمية:

أجلس لقراءة القرآن وهو ابن خمس، وكان ذكيًّا فطناً، وعندما أنهى قراءة القرآن بدأ بقراءة بعض الرسائل المختصرة في العلوم الإسلامية بالفارسية، وقد أسند والده تربيته إلى أحد خلفائه فاجتهد في تهذيبه وتربيته وتعليمه اجتهاداً بالغاً، ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره كان قد تحصّل لديه علمٌ جمٌّ وافرٌ في مختلف العلوم والفنون من الفقه، وأصول الفقه، وعلم الكلام، والمنطق، والعقائد، والنحو والصرف،

١- انظر: عبد الحي بن فخر الدين الحسني، **الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام** المسمى بـ: **نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر**، مكتبة دار عرفات، دارة الشيخ علم الله، رائي بريلي، الهند، ١٩٩٢م، ج ٧، ص ٢٩٧. ومحمد رحيم بخش الدهلوي، **حيات ولي**، المكتبة السلفية، لاهور، ١٩٥٥م، ص ٥٨٦.

والهندسة والرياضيات. ثم دخل في حلقة والده مع الطلاب الآخرين لسماع الحديث فقرأ عليه بعضاً وسمع البعض الآخر بالتحقيق والدراية والفحص والعناية حتى حصلت له ملكة راسخة في العلوم[٢].

ومن الموافقات بينه وبين أبيه أن كل واحدٍ منهما تصدّر وجلس للتدريس في السن السابعة عشرة[٣].

شيوخه:

والده هو أشهر مشايخه، وهو معروف مشهور السيرة، ومن مشايخه الآخرين:

١- الشيخ نور الله البرهانوي[٤].

٢- الشيخ محمد عاشق بن عبيد الله البهلتي[٥].

٣- الشيخ خواجه محمد أمين[٦].

فقرأ على هؤلاء الشيوخ كتب الصحاح و**الموطأ**، وأخذ عنهم غيره من العلوم الشرعية[٧].

صفاته الخِلقية ومهاراته:

كان طويل القامة، نحيف البدن، أسمر اللون، كثّ اللحية، وكان يكتب النّسخ والرقاع بغاية الجودة، وكانت له مهارةٌ في الرمي والفروسية والموسيقى[٨].

٢- المصدران السابقان بالترتيب، ص ٢٩٨، وص ٥٨٨-٥٨٩، وثريّا دار، **حضرت شاه عبد العزيز محدث دهلوي اور اُن کی علمی خدمات**، رسالة دكتوراة، جامعة بنجاب، ١٩٧٨م، ص ٩١.

٣- انظر: محمد رحيم بخش، **حيات ولي**، ص ٥٨٩-٥٩٠، وشاه ولي الله، **المقدمة في فن الترجمة**، تقديم وتعريب: مصباح الله عبدالباقي، مجلة **الدراسات الإسلامية**، الصادرة عن مجمع البحوث الإسلامية، إسلام آباد، باكستان، العدد الثاني، المجلد الثالث والأربعون، الصيف (أبريل ـ يونيو ٢٠٠٨م)، ص ١٢٦.

٤- من تلامذة الشيخ ولي الله، لازمه ملازمةً طويلة؛ حتى صار من كبار العلماء في حياة شيخه، توفي سنة ١١٨٧هـ انظر: **نزهة الخواطر**، ج ٦، ص ٤٠٦.

٥- يرجع نسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو ابن عمة الشيخ ولي الله الدهلوي، ومن أجلّ تلامذته، بلغ في العلم والحديث مرتبة عالية، وكان صاحب سرّ الشيخ ولي الله، ومن مصنفاته **سبيل الرشاد** بالفارسية، و**القول الجليّ في مناقب الوليّ**، و**تبييض المصفّى على الموطأ للشيخ ولي الله**، توفي سنة ١١٨٧هـ، المرجع السابق، ج ٦، ص٢٣٨-٢٣٩.

٦- من تلامذة الشيخ ولي الله، صاحب علمٍ وفير، توفي سنة ١١٨٧هـ، المرجع السابق، ج ٦، ص ٢٩٣.

٧- انظر: **نزهة الخواطر**، ج ٧، ص ٢٩٨.

٨- نفس المصدر السابق.

تلامذته[٩]:

١- تعلم عليه إخوته عبد القادر ورفيع الدين وعبد الغني وختنه عبد الحيّ بن هبة الله البرهانوي.

وقرأ عليه:

٢- المفتي إلهي بخش الكاندهلوي.

٣- السيد قمر الدين السوني پتی.

٤- غلام علي بن عبد اللطيف الدهلوي.

٥- السيد قطب الهدى بن محمد واضح البريلوي.

طريقته في التدريس:

كان رحمه الله يفسّر كل يومٍ ركوعاً من القرآن، وقد كانت تلك طريقة والده في التدريس، وكان آخر دروس والده حول قوله تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾[١٠]. ومن هذه الآية فصاعداً بدأ الشيخ عبد العزيز في تفسير القرآن، وكان آخر دروس الشيخ حول قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾[١١]. ومن هذه الآية بدأ سبطه إسحاق بن أفضل تفسير القرآن[١٢].

وكان الشيخ عبد العزيز رحمه الله محظوظاً مسموع الكلام، وكان الناس يأتونه لأخذ العلوم عنه، ويقصدونه لقضاء حوائجهم، وطلاب العلم للاستفادة من علومه المختلفة. وقد ابتلي بالمرض مبكراً، وهو ابن خمسٍ وعشرين سنة، وقد عُدّ منها أربعة عشر مرضاً مفجعاً، وقد فوّض التدريس لأجل ذلك إلى إخوته، ومع ذلك كان يصنّف ويفتي ويعظُ، وكان الناس يتهافتون عليه تهافت الفراش على السِّراج[١٣]. وكان حاضر البديهة سريع الجواب، فقد سأله أحد النّصارى الإنجليز ـ وكان يعرف الفارسية والعربية جيداً ـ بلغة الشعر بالفارسية قائلاً[١٤]:

کسے بگفت کہ عیسیٰ ز محمد اعلیٰ است
کہ ایں بزیر زمین دفن وآں بأوج سماست

٩- انظر: **نزهة الخواطر**، ج ٧، ص ٢٩٩.

١٠- سورة المائدة، الآية: ٨.

١١- سورة الحجرات، الآية: ١٣.

١٢- **نزهة الخواطر**، ج ٧، ص ٢٩٩.

١٣- انظر: المرجع السابق، ج ٧، ص ٣٠٠.

١٤- انظر: ثريا دار، **حضرت شاه عبد العزيز محدث دهلوي اور ان کی علمی خدمات**، ص ١٠٥.

ومعناه: إذا قال شخصٌ: إن عيسى عليه السلام أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم لأن محمداً مدفون في الأرض، وعيسى في أعلى السماء.

فأجابه قائلاً:

بگفتش كه نه اين حجتت قوى باشد

جناب بر سر آب است و گوهر ته دريا است

ومعناه: قل له: إن حجتك ليست قوية لأن المذكور في الفضل والمرتبة كالذي فوق الماء، والدرّ واللآلي في قاع البحر، وهو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم(١٥).

وقدكان حسن المحاضرة، جميل المذاكرة، فصيح المنطق، مليح الكلام، ذا تواضعٍ وبشاشة وتوددٍ، وكان الناس يفتخرون بصحبته، وقد بلغ من الشهرة والكمال بحيث ترى الناس في مدن أقطار الهند يفتخرون بانتسابهم إليه، بل بانسلاكهم في سمط من ينتمي إلى أصحابه. توفي بعد صلاة الفجر يوم الأحد لسبع خلون من شوال سنة ١٢٣٩هـ ، وله ثمانون سنة. وقبره بدهلي عند قبر والده خارج البلدة(١٦).

أهمُّ مؤلفات الشيخ عبد العزيز(١٧) رحمه الله تعالى:

١- تفسيره المسمى بـ: **فتح العزيز** صنّفه في شدة المرض، وهو في مجلداتٍ كبار ضاع معظمه في ثورة الهند، وما بقي منه إلا مجلدان من الأوّل والآخر.

٢- **الفتاوى العزيزية** وهي بالفارسية في مجلدين.

٣- **التحفة الاثناعشرية**، وهو في الكلام على مذهب الشيعة، لم يسبق له مثيل.

٤- **بستان المحدثين**، وهو فهرس كتب الحديث، وتراجم أهلها ببسطٍ وتفصيلٍ، ولكنه لم يتمّه.

٥- **العجالة النافعة** في الحديث.

٦- **ميزان البلاغة** في علم البلاغة.

١٥- المصدر نفسه.

١٦- انظر: المرجع السابق، ص ٣٠٦.

١٧- المرجع السابق، ص ٣٠٣- ٣٠٤.

٧- **ميزان الكلام** في علم الكلام.

٨- **السرّ الجليل في مسألة التفضيل**، رسالة في تفضيل الخلفاء بعضهم على بعض.

٩- **سرُّ الشهادتين**، رسالةٌ نفيسةٌ في شهادة الإمام الحسين رضي الله عنه.

١٠- حاشية على "مير زاهد رسالة".

١١- حاشية على "مير زاهد ملا جلال".

١٢- حاشية على "مير زاهد شرح المواقف".

١٣- حاشية على "حاشية ملا كوسج" المعروفة بالعزيزية.

١٤- حاشية على "شرح هداية الحكمة للصدر الشيرازي".

إسهامات الشيخ عبد العزيز الأدبية وتذوقه للشعر العربي خاصةً:

الشيخ عبد العزيز رحمه الله له إسهامات كثيرة في الأدب الأردوي والفارسي والعربي خاصة، وكان له باع طويل في قرض الشعر وعلوم البلاغة واللغة، وكان واسع الاطلاع على دواوين العرب في الشعر، وهذا يظهر للقارئ الكريم من خلال قراءة أشعاره العربية عندما يُضمِّنُ شطراً من بيت، أو بيتاً كاملاً لبعض قصائده.

تأمل الأبيات التالية وهو يصف وجده وفراقه وبعده عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيقول:

يا سائراً نحو بان الحيّ والأَسَلِ سلِّمْ على سادة الأوطان ثمّ قلِ
ما زلتُ في بُعدِكم كالنّار في شعَلٍ والأرض في كسلٍ والماء في مللِ[١٨]

وقد ضمّن بيتاً كاملاً من لامية العجم[١٩] في الأبيات المذكورة وهو:

أعلل النّفس بالآمال أرقبها ما أضيقَ العيش لولا فسحة الأملِ

١٨- **نزهة الخواطر**، ج ٧، ص ٣٠٥.

١٩- لمؤيد الدين أبي إسماعيل بن علي بن محمد بن عبد الصمد الأصبهاني المعروف بالطُّغرائي، انظر: الزركلي، **الأعلام**، دار العلم للملايين، ط ١٥، ٢٠٠٢م، ج ٢، ص ٢٤٦. الذي يغلب على الظنّ بأن الذي سمى هذه القصيدة بلامية العجم هو الطغرائي نفسه ليناله الشرف والشهرة بمقارنته بالشنفرى صاحب لامية العرب ذي الشهرة العالية، والتي يقول فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "علموا أولادكم لامية العرب فإنها تعلمهم مكارم الأخلاق". انظر: **مجلة الجامعة الإسلامية**، المدينة المنورة، المجلد العاشر، العدد الأول، ٢٠٠٢م، ص ١٩٥ - ١٩٧.

ويقول في مدح النبيّ صلى الله عليه وسلم[٢٠]:

ألا يا عاذلي[٢١] دمْ في ملامي[٢٢] فإنّي لا أحولُ عن الغرامِ[٢٣]

فجفني ساهرٌ[٢٤] ما دمتُ حيًّا وقلبي هائمٌ[٢٥] والدمع هامي[٢٦]

إلى أن يقول:

أجرني سيّدي من ضيمِ[٢٧] سقمٍ[٢٨] أشدّ عليّ من وقع الحُسامِ[٢٩]

صبرتُ عليه حتّى عيلَ[٣٠] صبري وكاد يذيقني طعم الحِمامِ

٢٠- انظر: **نزهة الخواطر**، ج ٧، ص ٣٠٥.

٢١- العاذل: اسم فاعل من عذل يعذل عذلاً، وهو اللوم والعتاب، انظر: محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ج ١١، ص ٤٣٧، وأبوعبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، **العين**، تحقيق: مهدى المخزومي وإبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، إيران، الطبعة الثانية، ١٤٠٩ هـ، ج ٢، ص ٩٩.

٢٢- يقال: فلان ملومٌ، أي: أتى بما يلام عليه، وفي التنزيل، قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ سورة الذاريات، الآية: ٥٤، والمصدر منه: اللوم والملامُ، انظر: المرجع السابق، ج ٨، ص ٣٤٣.

٢٣- يقال: فلان مغرمٌ بهذا الشيء، إذا اشتد حبه له، وأصل الغرام: الهلاك، وفي القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ سورة الفرقان، الآية: ٦٥. أي: هلاكاً. انظر: إبراهيم مصطفى وآخرون، **المعجم الوسيط**، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، ج ٢، ص ٦٥١.

٢٤- أصل السهر هو: عدم النوم بالليل، وهوالأرَقُ، ويقال: رجلٌ سُهَارُ العين، أي: لا يغلبه النوم. انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٤، ص ٣٨٣.

٢٥- أصل الهائم: الحائر الذي يخرج في الأرض لا يدري أين يسير فهو في حيرةٍ من أمره واضطرابٍ، وقلبٌ هائمٌ أي بلغ في الحب منزلةً عالية، وقلبٌ مستهامٌ: دخل الحبُّ في شغافه، وفلان هيام وتهيام: إذا وصل الحبُّ إلى شغاق قلبه. انظر: **المعجم الوسيط**، ج ٢، ص ١٠٠٤.

٢٦- والهَمْي من قولهم: هَمَى الماءُ يَهمي هَمْياً، إذا سال وجرى على وجه الأرض، وكذلك هَمَى الدمعُ يَهمي. انظر: الخليل، **العين**، ج ٤، ص ١٠١.

٢٧- الضيم هو الظلم، وهذا رجلٌ مضيم ومستضامٌ، أي: مظلومٌ. انظر: الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية، ج ١٥، ص ٩٣.

٢٨- سَقِم فلان فهو سقيمٌ: إذا طال مرضه. انظر: **المعجم الوسيط**، ج ١، ص ٤٣٧.

٢٩- الحسام: اسم من أسماء السيف، وهو كغرابٍ وزناً، وهو ما يحسم به الأمر ويقطع، وسمي السيف حساماً لأنه يحسم الرأس عند اللقاء ويقطعه. انظر: **تاج العروس**، باب "ح س م"، ج ٣١، ص ٤٨٨.

٣٠- يقال: عِيلَ صبر فلان، إذا نفد وانتهى. انظر: **المعجم الوسيط**، باب " العين" ج ٢، ص ٦٣٧.

فمدحُكَ رقيتي وشفاء دائي إذا ما خضتُ[٣١] في لجج[٣٢] السّقامِ

وإنْ أكُ ظالماً عظُمتْ ذنوبي فحبك سيدي ماحي[٣٣] الآثامِ

فقد أُعطيتَ ما لم يُعطَ خلقٌ عليك صلاة ربك بالسّلامِ

وقد اخترتُ من قصائده قصيدةً واحدة أتناولها بالشرح والتعليق، وهي تُعَدُّ من عيون القصائد العربية، وسميتها "لامية شاه عبد العزيز الدهلوي إلى عمه" وذلك للأسباب التالية:

١- أن هذه القصيدة تعد مرآةً واضحة للحالة السياسية والعسكرية والاقتصادية التي آل إليها أمر المسلمين في شبه القارّة الهندية في تلك الحقبة من الزمن.

٢- جزالة ألفاظها وبديع معانيها وجمال أسلوبها.

٣- في القصيدة إشارات لطيفة لما كان يعتقده الشاعر.

٤- الاجتهاد في إخراج التراث الشعري لشعراء شبه القارّة الهندية للقرّاء الكرام.

٥- وفضلاً عن ذلك تصحيح الأخطاء الإملائية والكتابية التي تزخر بها القصيدة.

عملي في القصيدة:

١- القصيدة بلا عنوان معيّن، وقد بعث بها الشاعر إلى عمه "شاه أهل الله الدهلوي" يشرح فيها ما آلت إليه حال المسلمين في الهند في وقته، فسميتها بعنوان مناسب جرياً على عادة أهل اللغة والأدب في تسميتهم للقصائد بالروي الذي تنتهي به القصيدة "لامية شاه عبد العزيز الدهلوي إلى عمه شاه أهل الله".

٢- قمت بالكتابة الصحيحة للقصيدة وجرّدتها من الأخطاء الإملائية، وفي بعض الأحيان أضفتُ كلمةً أو حذفتُ حرفاً ليستقيم المعنى، وقمت بتفكيك القصيدة من الرسم الأردوي وجعلتها بالرسم العربي.

٣١- أصل الخوض هو: المشي في الماء العكر الذي لا تستطيع أن تتبين منه شيئاً. انظر: **المعجم الوسيط**، ج ١، ص ٢٦٢.

٣٢- لجج: جمع لجّةٍ. وهي أمواج البحر العاتية التي تأخذ الناس والأمتعة، ولها صوتٌ وصرصرةٌ. انظر:أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن العباس بن أحمد بن إدريس الطالقاني، **المحيط في اللغة**، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، دار النشر، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ج ٦، ص ٤٠٨.

٣٣- من محا يمحو فهو ماحي، الذي يمسح الشيء ويذهب بأثره، وهو يستعمل في الأشياء الحسية والمعنوية معاً. انظر: **المعجم الوسيط**، ج ١، ص ٢٧٩.

٣- ضبطتُ القصيدة بالشكل.

٤- قمتُ بشرح الكلمات الغريبة والصعبة.

٥- ثم أردفت بأبياتها شرحاً تعليقاً حسب ما تيسر لي فهمه. والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

لامية شاه عبد العزيز الدهلوي إلى عمه(٣٤):

سَلاَمٌ عَلىَ مولى جَسيمِ(٣٥) الفَضَائِلِ ... كَرِيمِ الوَرى حَاوي فُنُونِ الفَواضِلِ

حَماهُ إلهُ العَالَمِيـــنَ عَنِ الأذَى ... وَعَنْ كُلِّ شَرٍّ في الخَلِيقَةِ نــازِلِ

وبعدُ فإنّ العبدَ يَحمَدُ رَبّـــهُ ... على مَا حَماهُ مِنْ صُنُوفِ النَّوَازِلِ(٣٦)

لأَغْدُو وأثْوَابُ النّعِيمِ مَلاَبِسـي ... وأُمْسِي وأَيْدِي الطيّبَاتِ حَمَـائِلِ(٣٧)

ولكِنْ أَرَى الكُفّارَ أَرْبَابَ ثَـرْوَةٍ ... لَقَدْ أَفْسَدُوا مَا بَيْنَ دِهْلِي وَكَابُـلِ

وَلَقَدْ رُفِعَ الأَشْرَارُ فَوْقَ خِيـَارِنَا ... وَكُلُّ امْرِئٍ شَرٍّ يَلِجُّ بِالثنَاء عَاطِـلِ(٣٨)

٣٤- هذه القصيدة منقولة من كتاب **حيات ولي** لمحمد رحيم بخش الدهلوي، ص ٦٠١- ٦٠٢. ولا توجد في الكتب الأخرى التي تكلمت عن حياة شاه عبد العزيز وتاريخ شبه القارة الهندية عموماً، ومن أشهر من ألف عن تاريخ الأعلام في الهند عبد الحي اللكهنوي، ولا توجد هذه القصيدة في كتابه المسمى بـ: **نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر**، ولن يدرك القارئ الكريم أهمية هذا الجهد إلا أن يطلع على أصل هذه القصيدة في الكتاب المذكور، وهي في شكل مخطوطٍ لا يستطيع القارئ أن يستوعب فهمها، وذلك لكثرة الأخطاء اللفظية والإملائية؛ بل والمعنوية التي لا يستقيم المعنى إلا بتصحيحها وتغيير بعض الكلمات والألفاظ فيها، حتى تؤدي معنىً صحيحاً كما أراده الشاعر، وحسبي أني لم أدخر جهداً في تصحيحها وتهذيبها وتنقيحها، فما كان فيها من صواب فمن توفيق الله تعالى إياي في هذا العمل، وإن كان غير ذلك فمن نفسي ومن الشيطان، وأستغفر الله من ذلك وأتوب إليه.

٣٥- قال ابن منظور: قد جَسُمَ الشيءُ أَي عَظُمَ فهو جَسِيمٌ وجُسام بالضم والجِسامُ بالكسر جمع جَسيمٍ وجَسُمَ الرجلُ وغيره يَجْسُمُ جَسامةً فهو جَسِيمٌ والأُنثى من كل ذلك بالهاء، انظر: **لسان العرب**، ج ١٢، باب جسم، ص ٩٩.

٣٦- وأصل الكلمة في كتاب **حيات ولي** "النّوائل" بدل "النوازل"، ولكن لا يستقيم المعنى بالنّوائل لأن قبلها كلمة "حماه" وهي مناسبة للنوازل، إذْ كيف يحمد العبد ربه على ما حماه من العطايا، والنوازل: جمع نازلة وهي المصيبة.

٣٧- ليست حمالة السيف هي المرادة، بل إن الشاعر يشكر نعم ربه، وأيدي الطيبات حمائل تحمل النعم والخير إليه على سبيل الاستعارة المكنية، شبّه نعيم الكريم بإنسانٍ له أيدٍ تعطي هذه النعم وتحملها إليه. والله أعلم.

٣٨- وأصل البيت هكذا "وكل امرإٍ شرٍّ يلج بالثناظل" والبيت بهذا الرسم لا يستقيم معناه إلا بجعل الكلمة "بالثناء عاطل".

وكُلُّ بَخِـــيلٍ لَا يُرَامُ فِنَـــاؤُهُ وكُلُّ حَسُودٍ مُبْغِضٍ ذِي غَــوائِلِ(٣٩)

أَرَى الْخَلْقَ طُرًّا(٤٠) مُشْتَكِينَ مُعَامَهُـمْ وأَمْرُهُمُ مَا بَيْنَ فَــقْرٍ وعَــائِلِ(٤١)

لِكُلِّ زَمَــانٍ مِنْ تَقَاسُمِ رَحْمَــةٍ إلا(٤٢) لهُ نَصِيْبٌ لا يُــرَدُّ بِحَــائِلِ

وإنَّ زَمَــاناً ظِلْتُ فِيهِ مُسَــوّداً(٤٣) خَلى مِـــنَ الخَيْرَاتِ مَلَاءَ الزَّلَازِلِ

فَمَا الشُّغْلُ فِيهِ غَيْرَ فِسْقٍ(٤٤) وبِدْعَةٍ(٤٥) ومَا النّاسُ إلّا كَالجِمَالِ العَبَاهِلِ(٤٦)

جَزَى اللهُ عَنّا قَوْمَ سِيْكهـ(٤٧) ومَرْهَتْ(٤٨) عُقُوبَةَ شَرٍّ عَاجِلاً غَيْرَ آجِــلِ(٤٩)

٣٩- والأصل: "وكل حسود مبغضٍ ذي وغائل" ولا يستقيم المعنى إلا بحذف الواو وجمع غائل على الغوائل وهي: جمع غائلة وهي الفساد والشر والداهية. و "الغول" ما ينشأ عن الخمر من صداع وسكر وفي التنزيل العزيز: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ سورة الصافات، الآية: ٤٧. انظر: **المعجم الوسيط**، ج ٢، باب العين، ص ٦٦٦.

٤٠- أي: أجمعين.

٤١- عيل عَالَ عَيْلَةً: افْتَقَرَ. انظر: **المحيط في اللغة**، ج ٢، ص ١٥٧.

٤٢- غير مضبوطةٍ بالشكل فيمكن أن تقرأ كأداة تنبيه؛ ولكن هي أداة الاستثناء.

٤٣- أي: جعلت وصيرتُ سيّداً، من ساد، يَسُودُ،سِيَادَةً ، والاسمُ السُّؤدَد ، وهو المَجْدُ والشَّرفُ، فهو سَيِّدٌ ، والأُنثى، سَيِّدةٌ . انظر: **تاج العروس من جواهر القاموس**، ج ٨، باب سود، ص ٢٢٤.

٤٤- فسق والفِسْقُ التركُ لأمْرِ الله عز وجل ، فَسَقَ يَفْسُقُ فِسْقاً وفُسُوقاً. ورَجُلٌ فُسَّقٌ فِسِيْقٌ. والفُوَيْسِقَة: الفأرَة. وفَسَقَتِ الرُّطَبَةُ عن قِشْرِها: أي خَرَجَتْ منه. والفاسِقُ: الجائرُ. والفاسِقِيَّةُ: ضَرْب من العِمَّة. انظر: الطالقاني، **المحيط في اللغة**، ج ٥، ص ٢٩٣.

٤٥- البدعة: الأمر المُخْتَلَقَ الذي لم تَجْرِ به عادةٌ ولا سُنَّةٌ يقال: هذا من فِعْلِهِ بَدِيعٌ وبِدْعٌ وبِدَعٌ وفي التنزيل: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ سورة الأحقاف، الآية: ٩، انظر: ابن سيده، **المخصص**، تحقيق: خليل إبراهيم جفّال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ج ٥، السفر السادس عشر، ص ٢٢٧.

٤٦- "العَباهل": جمع العَبْهَل، وهو الإبل التي أُهملت تَرِد كيف شاءت، ومتى شاءت. قال: عَبَاهِل عَبْهَلها الوُرّادُ، وبه شُبِّهت الملوكُ الذين لا فَوقَ يدِهم يدٌ. هذا ممّا زيدت فيه الباء. والأصْل العَيْهَل والعَيْهَلة: التي لا تستقرّ. انظر: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ج ٤، باب عظل، ص ٣٥٧.

٤٧- السيخية: ديانة بدأت في شمالي الهند في القرن السادس عشر بالدعوة لاتباع تعليمات غورو ناناك وخلفائه التسعة من الغورو البشر لقب غورو يعني بالهندية المعلم. كلمة "سيخية" تأتي من كلمة "سيخ" وهي بدورها تأتي من الجذر السنسكريتي التي تعني التلميذ وسبب انتشارها في العالم هو اعتماد الإنجليز عليهم في بعض الحروب =

فَقَـدْ قَتَلـُوْا جَمْعاً كَثِيراً مِنْ الوَرَى ... وقَدْ أَوْجَعُوْا فِي أَهْلِ شَاهٍ[٥٠] وجَاهِلِ

ولمَ يَدَعُوْا قَوْماً مَصُـونيْنَ عَنْهُـمُ ... وإنْ وَاقَعُوهُمْ بِالذّرَى[٥١] والكَلاَكِلِ[٥٢]

لَهُمْ كُلُّ عَامٍ نَهْبَةٌ[٥٣] فِي بِـلاَدِنَـا ... يَخُوضُونَ[٥٤] فِيْنَا بِالضُّحَى[٥٥] والأَصَائِلِ[٥٦]

لَقَدْ فَسَدَتْ هَذِه الدِّيَارُ وقَدْ خَلَتْ ... عَنِ الْعَدِلِ حَتَّى قُلْتُ بَلْ كُلُّ قَائِـلِ

فَهَلْ بَعْدَ هَذَا مِنْ مُعَاذٍ لِعَـائِـذٍ؟ ... وهَلْ مِنْ مُغِيثٍ؟ يَتقِي اللهَ عَـادِلِ

أَيَا قَلْبُ كَمْ[٥٧] تَشْكُوْ الزَّمَانَ وَأَنْتَ عَنْ ... مكَارِمِ لُطْفِ اللهِ لَاهٍ[٥٨] وَغَـافِـلِ

كَفَى اللهُ سُلْوَاناً[٥٩] لِوَجْعِ مَفَاصِـلِي ... أليسَ بِكَافٍ عُرْوَةٌ[٦٠] لِلأَوَاثِـلِ[٦١]

= وهجرات السيخ خارج بلادهم. انظر: **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة**، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ط ٣، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص ٢٨٣.

٤٨- قوم من الأوباش والغوغاء وقطّاع الطرق يحاربون لأجل الحصول على المال والجاه.

٤٩- وفي الأصل رسم هذا الشطر من البيت هكذا "عقوبة شرعا جلا غير آجل" وقد التبس البيت على ثريا دار فنقله في بحثها بالطريقة التالية: "عقوبة شرعا جلا غير آجل" وهي تقرأ "شرعاً" والصحيح أنّها "عقوبة شرٍّ عاجلاً غير آجل" فليتدبّر هذا وليفهم.

٥٠- في الأصل "شاء".

٥١- قال الأَصمعي: الذَّرى بالفتح كل ما استترت به يقالأَنا َ في ظلِّ فلان وفي ذراه أَيَ في كنَفَه وسترِ ْ ه ودِفْئِه واسْتَذْرَيْتُ بفلان أَي التَجَأْتُ إِليه وصِرْتُ في كَنَفه. ابن منظور، **لسان العرب**، ج ١٤، باب ذرا، ص ٢٨٢.

٥٢- الكلاكل من الجماعات، كالكراكر من الخيل. وهي الجماعات. انظر: **العين**، ج ٥، ص ٢٨٠.

٥٣- النَّهْبُ: الغارةُ والسَّلْبُ. **لسان العرب**، ١/ ٧٧٣.

٥٤- أَصْل الخَوْض المشيُ في الماء وتحريكُه ثم استعمل في التلبس بالأَمر والتصرف فيه. **لسان العرب**، باب خوض، ٧/ ١٤٧.

٥٥- بالفتح والمدّ: امتداد النهار وهو مذكر كأنه اسم للوقت، و"الضَّحْوَةُ" مثله والجمع "ضُحًى" مثل قرية وقرى. انظر: أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري، **المصباح المنير**، المكتبة العصرية، ١/ ١٨٦.

٥٦- الأَصِيلُ : العَشِيُّ وهو الوَقْتُ بعدَ العَصْرِ إِلى المَغْرِب،وشاهِدُ الأَصائِلِ قَوْلُ أَبي ذُؤيب الهُذَلِيِّ : لَعَمْرِي لأَنْتَ البَيتُ أَكْرِمُ أَهْلَه ...وأَقْعُدُ في أَفْيائِهِ بالأَصائِلِ. الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، باب "أ ص ل"، ٢٧/ ٤٤٩.

٥٧- والأصل: "أيا قلبُكم تشكو الزمان وأنت" فيفهم من البيت بأنّ في "قلبُكم" ضمير الكاف لخطاب الجمع؛ ولكن معنى البيت لا يستقيم بهذه الصورة، لأن "كم" خبرية وليست كاف الخطاب للجمع، فتكون الكتابة الصحيحة للبيت كما هو مرسوم في الأعلى.

٥٨- أي غافلٍ وساهٍ وخالٍ عن ذكر الله تعالى.

٥٩- سلاه، وعنه سلوا، وسلوانا نسيه وطابت نفسه بعد فراقه. **المعجم الوسيط**، باب السين، ١/ ٤٤٦.

وكَيْفَ يَهُمُّ الـهَمُّ(٦٢) نَحْوَ قُلُوْبِـــنَا وَلُذْنَا إِلى مَنْ لَيْسَ عَنّا بِغَــافِلِ
وإنْ كَانَتْ الأَقْوَامُ لَا خَيْرَ فِيهِـــمُ فنَحنُ تَمَسَّكْنَا بِخَيْرِ الوَسَــائِلِ
رَسُولِ إلهِ العَالَمِيْنَ فَـــإنّـــهُ ثِمَالُ(٦٣) اليَتَامَى عِصْمَةٌ لِلأَرَامِــلِ
يَلُوذُ(٦٤) بِهِ الأَلّافُ(٦٥) مِنْ أَهْلِ حَاجِةٍ فَهُمْ عِنْدَهُ فِي نِعْمَةٍ وفَوَاضِـــلِ(٦٦)
يَضُمُّ(٦٧) عُفَاة(٦٨) الطَّارِقِيْنَ جَنَــابُهُ كَمَا ضَمَّ أُمُّ الرَّأْسِ(٦٩) شُعْثَ(٧٠) الْفَتَائِلِ(٧١)

٦٠- وأَصْلُ العُرْوَةِ من الشَّجَرِ: ما له أَصْلٌ باقٍ فى الأَرْضِ، كالنَّصِيِّ والعَرْفَجِ وأجْناسِ الخُلَّةِ والحَمْضِ، فإذا أَمْحَلَ النّاسُ عَصَمَتِ العُرْوَةُ الماشِيَةَ، ضَرَبَها الله مَثَلاً لما يُعْتَصَمُ به من مَجيءِ الدِّين. والعُرْوَةُ الوُثْقَى: قَوْلُ لا إله إلا الله. وهو على المَثَلِ، انظر: السيد محمد مرتضى الزبيدى، **التكملة والذيل والصلة لما فات صاحب القاموس من اللغة**، تحقيق: الأستاذ السيد مصطفى السنوسي، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١٢/ ١٣.

٦١- الأشراف والأسياد، وأصل كل شيء، يقال: فلان أثيل الشرف والنسب، أي: أصيلٌ. انظر: **المعجم الوسيط**، ج ١، ص ٦.

٦٢- والأصل: "وكيف بهم الهم نحو قلوبنا" ولكن فيه تكرار للمصدر "الهمّ" والأصحُّ في رأيي كما هو مرسوم في الأعلى، والهمّ من حيث اللغة: الهاءُ والميم: أصلٌ صحيح يدلُّ على ذَوْبٍ وجَرَيانٍ ودَبيبٍ وما أشبَهَ ذلك، ثم يقاس عليه. منه قول العرب: همَّني الشَّيءُ: أذَابَني. وانْهَمَّ الشَّحمُ: ذاب. ثمّ قال: ومن الباب الهِمُّ: الرّجل المُسِنّ؛ والمرأة هِمَّة، كأنهما قد ذابا من الكبر. وأمَّا الهَمُّ الذي هو الحزن فعندنا من هذا القياس، لأنّه كأنّه لشدته يَهُمُّ، أي يذيب. انظر: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ٦/ ١٣.

٦٣- ملجأُهم وملاذهم.

٦٤- "لاذ" بالشيء لوذا ولياذا: لجأ إليه واستتر به وتحصن ويقال: لجأ إليه واستغاث به وامتنع والطريق بالدار أحاط بها واتصل. **المعجم الوسيط**، باب اللام، ٢/ ٨٤٥.

٦٥- والأصل: "الاف" ولا يستقيم البيت إلا بإضافة "أل" إليها كما هو واضح في الأعلى. فيصير على وزن "الألّاك".

٦٦- "الفاضلة" النعمة العظيمة جمع فواضل وفواضل المال غلة الأرض وألبان المواشي وأصوافها وأرباح التجارة. **المعجم الوسيط**، باب الفاء، ٢/ ٦٩٣.

٦٧- الأصل: "يصم" الكلمة قد رسمت بصادٍ غير معجمة، والصحيح ـ والله أعلم ـ بالضّاد المعجمة؛ لأن الكلمة التالية لها تبين بأنها كذلك وهي كلمة "كما ضمّ".

٦٨- العافِي: "الضَّيفُ" وكلُّ طالِبِ فَضْلٍ أَوْ رِزْقٍ، وقد عَفاهُ واعْتَفاهُ: أَتاهُ يَطْلُبُ مَعْروفَهُ. الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، باب عفو، ٣٩/ ٧١.

٦٩- كلُّ شيءٍ يضمُّ إليه ما سواه مما يليه فإن العربَ تسمّي ذلك الشيءَ أُمّا. ومن ذلك أُمُّ الرأس وهو الدّماغ. تقول: أمْتُ فلاناً بالسيف والعَصا أمّا، إذا ضربته ضربةً تصل إلى الدماغ. ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ١/ ٢٢.

وَيُسْتَهْزَمُ الجَيْشُ الْعَرَمْرَمُ[٧٢] بِاسْمِهِ وإِنْ كَانَ جَرّاراً[٧٣] كَثِيرَ الصَّواهِلِ[٧٤]

أسلوب بدأ القصيدة:

بدأ الشاعر هذه القصيدة بتحية أهل الجنة، وهو السلام، ثم حمد الله وأثنى عليه؛ لحمايته له من المصائب ونوازل الأيام، بخلاف القصائد العربية التقليدية التي تبدأ بالوقوف على الأطلال أو النسيب أو ذكر الأحبة، ثم الانتقال إلى الموضوع المقصود من قبل الشاعر مثل:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدّخول فحومل[٧٥]

عفت الديار محلها فمقامها بمنىً تأبّد غولها فَرِجَامُها[٧٦]

أمِنْ أمّ أوفى دمنة لم تكلّمِ بحومانة الدّراج فالمتثلمِ[٧٧]

ودع هريرة إنّ الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيُّها الرجلُ[٧٨]

والقصيدة من بحر الطويل، أما من حيث الغرض فإن هناك أغراضاً كثيرة للشعر في اللغة العربية؛ من مدح وهجاءٍ ووصف، ونسيب وغزل، وما شابه ذلك، وفي العصر الحديث ظهرت أغراضٌ جديدةٌ منها الشعر السياسي، ولامية الشيخ عبد العزيز تعد من القصائد الشعرية التي تنتمي إلى الشعر السياسي.

٧٠- "شعث" شَعِثَ شَعَثاً وشُعوثَةً فهو شَعِثٌ وأَشْعَثُ وشَعْثانُ وتَشَعَّثَ تَلَبَّد شعرُه واغْبَرَّ وشَعَّثْتُه أَنا تَشْعِيثاً والشَّعِثُ: المُغْبرُّ الرأْسِ المُنْتَفِثُ الشَّعرِ الحافُّ الذي لم يَدَّهِنْ والتَّشَعُّثُ التَّفَرُّقُ. ابن منظور، **لسان العرب**، باب شعث، ٢/ ١٦٠.

٧١- "ف ت ل": فتَلْتُ الحَبْلَ وَغَيْرَهُ فَتْلاً مِنْ بَابِ ضَرَبَ وَالْفَتِيلُ مَا يَكُونُ فِي شِقِّ النَّوَاةِ وَفَتِيلَةُ السِّرَاجِ جَمْعُهَا فَتَائِلُ وَفَتِيلَاتٌ وَهِيَ الذُّبَالَةُ، الفيومي، **المصباح المنير**، المكتبة العصرية، ١/ ٢٣٩، و**معجم مقاييس اللغة**، ٤/ ٤٧٢.

٧٢- وفي الأصل: "العزمرم" والصحيح العَرَمْرَمُ: وهوالشَّدِيدُ من كُلِّ شَيْءٍ، والجَيْشُ الكَثِيرُ، الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، ٣٣/ ٨٢. و**المعجم الوسيط**، باب العين، ٢/ ٥٩٧.

٧٣- والأصل: "جرار" وهذا غير صحيح لأن الكلمة خبر كان فينبغي نصبها هكذا "جرّاراً" والعَسْكَر الجَرّار أي: كثير، وقيل: هو الذي لا يسير إلا زَحْفاً لكثرته. ابن منظور، **لسان العرب**، باب جرر، ٤/ ١٢٥.

٧٤- الصّواهل: جمع صاهلة، وهي الخيل بصوت حادٍّ مبحوحٍ وهي مسرعة.

٧٥- انظر: **ديوان امرئ القيس**، اعتنى به: عبدالرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٤م، ص ٢١.

٧٦- **ديوان لبيد بن ربيعة**، اعتنى به: حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٤م، ص ١٠.

٧٧- أبو العباس ثعلب، **ديوان زهير بن أبي سلمى**، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه، حنّا نصر الحتّي، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٤م، ص ٣٣.

٧٨- **ديوان الأعشى**، شرح وتعليق: محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميزت، المطبعة النموذجية، (د.ت)، ص ٥٥.

والقصيدة موجهة إلى عمه شاه أهل الله يبيّن فيها أن عمه صاحب علم وفضل وكرم، وأنه حوى فنون العلم والأخلاق، ثم يدعو له بدعاءٍ جامعٍ بأن يحميه الله تعالى من الشرور والآفات والعاهات والآهات، ومن كل ما يسبب الضرر والضنك والضيق له، وعن المصائب والمشكلات التي تنزل بالبرية.

والبيتان الأولان يعتبران مقدمة وتوطئةً لما يأتي بعدهما حيث حمد الله سبحانه وتعالى حمد الصابرين على مصائب الدهر ونوازله، والشاكرين على ما هو فيه من النعم وصنوف العطيات والإنعامات التي حباه الله سبحانه وتعالى إيّاها، فهو في غدوه وإمسائه متلبّس بلباس الصحة والعافية، ومنعّمٌ بجميع نعم الله سبحانه وتعالى وفواضله عليه تترى، وكل نعيم طيب في يديه وهو قابض على هذه الطيبات والنعمات كالذي يقبض على مقبض السيف.

هنا الشاعر يرضى رضاء كاملا بما قسم الله له مع أننا لو نظرنا إلى حياته البائسة لعاودنا التأمّلُ، فإنه قد أصيب في وقت مبكر بأمراض كثيرة وهو ابن خمسٍ وعشرين سنة. وقد قال في كتابه إلى الأمير حيدر بن نور حسين البلگرامي؛ حينما سأله عن أحواله: "بأنه قد أصيب بأمراض عديدة لا يمكن ذكرها ومن تلك الأمراض قبض البواسير، واحتباس الرياح في المعدة والأمعاء، وفقدان الاشتهاء إلى حد أنه يقضي أياماً لا يأكل، ومنها صعود الأبخرة إلى القلب(٧٩).

ولكنه الرضا التام بما قسم الله له، فلم يكن يفكر في نفسه، بل كان مهتماً بأمر المسلمين، وهذا هو حال العلماء والعظماء؛ لأنهم ينسون أنفسهم في سبيل حفظ الكرامة والعزة للأمة. فهو مع هذه الأمراض كان دائم التفكير في حال الأمة الإسلامية وما آلت إليه من الضعف والهوان جراء خلافات الأمراء على الحكم والكراسي؛ مما أتاحت الفرصة لغيرهم بأن يتربعوا على عرش القدرة، ويبطشوا بالمسلمين، ويجمعوا الأموال والعتاد لمحاربتهم وإضعافهم سياسياً واقتصادياً ومعنوياً.

فهو يشكو في هذه القصيدة إلى عمّه: بأن الكفار أصبحوا أرباب الأموال والثروة والجاه، وأنهم بعد تملُّكِهم لهذه القوة المادية بدأوا يفسدون في البلاد والعباد؛ فهم قد أفسدوها من دهلي إلى كابل.

لله در شاه عبد العزيز، فإنه لم يعدّ نفسه من شبه القارة الهندية وأن الهند فقط هو وطنه دون أوطان المسلمين الأخرى، بل بقيت فيه روح البسالة والشجاعة واعتبار المسلمين أمّةً واحدةً رغم وجود الاستعمار الذي كان قد وصل جديداً إلى شبه القارة الهندية متمثلاً في شركة الهند الشرقية الإنجليزية البريطانية، فقد كان يترقب الشاعر أحوال المسلمين من دهلي إلى كابل فهو بحق ممن كان يهتم بأمور

٧٩- انظر: **نزهة الخواطر**، ج ٧، ص ٣٠١.

المسلمين، فمن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم[٨٠].

ولأجل هذا الاهتمام البالغ بأمور المسلمين فقد طلب والده شاه وليّ الله الدهلوي من حاكم أفغانستان أحمد شاه[٨١] أبدالي عندما رأى ازدياد الفساد وفصم أواصر الأمن والاستقرار في المنطقة من قبل جماعات السيخ في بنجاب ومرهت في جنوب الهند، أن ينتصر للمسلمين من هؤلاء الأعداء، وبالفعل فإن أبدالي لم يتوان عن ذلك طرفة عينٍ بل هبّ لنجدة ونصرة إخوانه المسلمين في شبه القارّة الهندية، وبدأت حملاته[٨٢] من عام ١٧٤٨م، واستمرت إلى عام ١٧٦١م، وقد استطاع خلال هذه الحملات المتواصلة ضد السيخ ومرهت والطوائف الأخرى المعادية للمسلمين أن يكسر شوكتهم ويعيد الحق إلى أهله.

ويشكو شاه عبد العزيز إلى عمه أن الأشرار رُفِعوا فوق الأخيار، وأصبح المدح والثناء على كل عاطل خال عن مكارم الأخلاق والتقوى سائغاً، وأن الناس يوصفون بما ليس فيهم، وهذا محذور في الشرع فقد ورد في الحديث: "إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا في وجوههم التراب"[٨٣].

ثم إن الشاعر يصور حالة البخلاء الذين أصبح همّ الواحد منهم جمع الأموال، ولا يهمّهم نصرة دينهم، فهم لا يقصدون لأجل العطية، ولا يصل خيرهم للناس، وعندهم من الحسد والبغض والشر والإفساد ما لا يوصف.

كما أن الناس أجمعين يشتكون ما آلت إليه حالهم، وما هم فيه من المعاناة والمشكلات من الدواهي العظام التي نزلت بهم، فهم لا يستطيعون أن يغيروا شيئاً؛ لأن الثروة والمال في أيدي الآخرين وهم الأعداء من السيخ ومرهت. وأما المسلمون فإن حالتهم بين الفقر والبؤس وعدم الاستقرار السياسي والاقتصادي.

٨٠- انظر: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، **المعجم الأوسط**، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥ هـ، رقم الحديث (٧٤٧٣)، ج ٧، ص ٢٧٠.

٨١- أحمد شاه بن محمد زمان خان السدوزائي مؤسس دولة أفغانستان الحديثة وأول الشاهات الدرّانيين، ولد (١١٣٥-١١٨٦هـ/ ١٧٢٢-١٧٧٢م).

٨٢- انظر: ثرياڈار، ***حضرت شاه عبد العزيز محدث دهلوي***، ص ٨٩.

٨٣- **صحيح مسلم**، باب النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط، وخيف من فتنةٍ على الممدوح برقم: ٥٣٢٣ و**مسند الإمام أحمد**، تحقيق: السيد أبو المعاطي النوري، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ٢/ ٩٤. وقد امتثل بعض الصحابة لهذا الأمر وطبقه فعن همام بن حارث أن رجلاً جعل يمدح عثمان بن عفان رضي الله عنه فعمد المقداد فجثا على ركتبيه وكان رجلاً ضخماً فجعل يحثو في وجهه الحصباء فقال له عثمان: ماشأنك؟ فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا في وجوههم التراب".

ومع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد قسم رحمته من العلم والجاه والسلطان بين الناس، وهذا كله بتقدير الله وقضائه، فلا مردّ لحكمه، ولا مبدِّل لكلماته، فقوله الحق، وحكمه الفصل، وقضاؤه هو النافذ على وجه هذه البسيطة.

وإن الزمان الذي جعل وصير فيه عبد العزيز سيداً للناس من قبل الله سبحانه وتعالى بأن أعطاه العلم والحكمة ـ كما تواصل القصيدة ـ فإنه خلي من الخير والبركة، كما يفعله الزلزال بالمنطقة المنكوبة فيذهب ببهائه ورونقه وجماله ويقلبُ كل شيء رأساً على عقب، فالزمان الذي هو فيه شغل الناس الشاغل الفسق والفجور، والظلم وانتشار البدع والخرافات والخزعبلات بين الناس. فالخلق فيه كالأنعام والإبل، لا يهمّهم إلا حياتهم الشخصية في هذه الدنيا، ثم يبين سبب كل هذه المشاكل، وهو عدم الأمن والاستقرار في البلاد؛ فهو لذلك يدعو على من تسببوا في هذه المصائب والمشاكل والويلات، وهم السيخ ومرهت بأن يعاجلهم الله بعقوبة في الدنيا قبل عقوبتهم في الآخرة، فهم قد قتلوا جماعات كثيرة من الناس، ولم يسلم من شرهم وكيدهم العامة ولا الخاصة، حيث عبر بقوله: "أوجعوا في أهل شاه وجاهل".

ولا يأمن أحد من غاراتهم وهجومهم، فهم يهجمون على الناس متفرقين وجماعات، ولهم في كل سنة هجوم لنهب الخيرات والأموال من بلاد المسلمين، فيدخلون طول البلاد وعرضها في الغدوّ والعشيّ للغارة والقتل والنهب وسلب الأموال، والحال هذه فإن البلاد قد فسدت من جراء حملاتهم الشنعاء والشعواء، وخلت من العدل والإنصاف، وقد دبّ الخوف والذعر إلى قلوب الناس، بسبب عدم الأمن والاستقرار والطمأنينة، فقد عايشت ـ كما تذكر القصيدة ـ وعاينت هذا بنفسي، بل هو ما يقوله كل قائل بأن حال البلاد والعباد قد آلت إلى الفساد والدمار والخراب، بسبب غطرسة وتكبر هؤلاء المهاجمين. وكان خوف شاه عبد العزيز معقولاً؛ لأن هؤلاء الأعداء المذكورين قد أكثروا من النّكاية في المسلمين، وهذا الخوف أظهره الشيخ في ثلاثة قصائد أرسلها إلى عمّه يستشيره في أمر هؤلاء؛ لأنّ خطرهم قد تفاقم جداً باستيلائهم على القلاع والحصون والأماكن المهمة في البلد.

يقول في هذا الصدد مخاطباً عمّه شاه أهل الله في واحدة من هذه القصائد، وهي من بحر البسيط[٨٤]:

أيّامُ بَرْدٍ أنْتَ فالقلبُ مُنْجَزِعٌ ... مِنْ قومِ سكهـ وأنّ الخوفَ معقُولُ

أفنَاهُمُ اللهُ عَنْ هذي الديارِ فهم ... شرُّ الأعادي وهم مِنْ جِنّةٍ غُـولُ

فَوّضْتُ أمري وأمرَ النّاس أجمَعِهِم ... إلى اللهِ وأنّ الحِفْظَ مَأمُــولُ

٨٤- محمد رحيم بخش الدهلوي، **حيات ولي**، ص ٦٠٩.

وفي قصيدة أخرى منها: يوضح المسألة إيضاحاً كاملاً؛ حيث يذكر الصورة المروِّعة والبشعة لجرائم هؤلاء الأوغاد، وأنه لم يسلم من شرِّهم وكيدهم أحد حتى الأيتام والأطفال الصِّغار حيث يقول(٨٥):

ثمّ إنّ البلاد فاسدةٌ ... عن أيادي الغشوم(٨٦)
غير خافٍ عليك ما صنعتْ ... قوم سكهـ كآيات الوِشَامِ(٨٧)
خفضوا كلّ قريةٍ ومضوا ... يفتحون الحصون والآطام(٨٨)
ضيّعوا أمّةً من الأرواح ... قتلوا أمّةً من الأجسامِ
نهبوا عُدةً من الأموال ... أوثقوا عِدةً من الأيتامِ
وسَقَوا كُلَّ مَنْ تَعَرَّضَهُم ... من فئامِ الأنَامِ كأس الحمامِ(٨٩)
ذَهُلَتْ كلُّ مرضعةٍ عمّا ... أرْضَعَتْهُ وكلُّ ذاتِ فِطامِ(٩٠)
هذه حالهم من الرفعة ... كلُّ يومٍ تزيدُ في الإقدامِ

ثم بيّن الحالة المزرية للمسلمين من تفرقهم وتشرذمهم، وعدم أخذ الأمور بجدٍ وحزمٍ، وإسناد أمور المشورة إلى غير أهلها الذين لا يستطيعون أن يحللوا الواقع العملي للأمّة، ويتخذوا حيال الأحداث القرار المناسب الذي فيه نفع الإسلام والمسلمين، بل يجتمعون ويعقدون الاجتماعات والمؤتمرات واحداً تلو الآخر، ويرفعون عن أنفسهم الملام بحلو المنطق والكلام المزور المزيّن بأنّهم سوف يستعدون لمواجهة هؤلاء وكيت وكيت، ولكن ليس في جعبتهم إلا التنديد والشجب لأعمال العدو.

فسبحان الله، ما أشبه الليلة بالبارحة، والتاريخ يعيد نفسه، فالناظر في الأحداث الجديدة وما نزل بالمسلمين من الويلات والمصائب والفجائع في هذه الأيام، وما يحاك لهم من الدسائس السياسية

٨٥- المرجع السابق، ص ٦١١.

٨٦- "الغشوم" الذي يخبط الناس ويأخذ كل ما قدر عليه، ويقال للحرب غشوم لأنها تنال غير الجاني، وناقة غشوم لا ترد عن وجهها. انظر: **المعجم الوسيط**، ج ٢، ص ٦٥٣.

٨٧- هي العلامات التي تجعل في الوجه والجسم بواسطة غرز الإبرة في المكان المعيّن، ويقال: أوشمت الأرض نباتها إذا ظهر وبرز وخرج، وأوشم البرق: إذا لمع لمعاناً خفيفاً. انظر: **المعجم الوسيط**، باب الواو، ج ٢، ص ١٠٣٥.

٨٨- الحصن والبيت المرتفع، المرجع السابق، ج ١، ص ٢١.

٨٩- الحِمَامُ: بكسر الحاء هو الموت.

٩٠- الفطام: فصل المولود عن ثدي أمّه، وكل شيء يفصل بينه يقال له: المفطوم. انظر: **المعجم الوسيط**، ج ٢، ص ٦٩١.

والعسكرية والاقتصادية من قبل أعداء الأمّة الإسلامية يرى أنها هي نفسها التي مرت بها الأمّة في شبه القارّة الهندية منذ حوالي أكثر من مائتين وخمسين عاماً، ففي أيّ حادثةٍ أو فاجعةٍ تنزل بالأمّة فإن القادة والساسة الضعفاء في الأمّة الإسلامية تعقد لها الاجتماعات والمؤتمرات والندوات، والنتيجة لا تكون سوى الشجب والتنديد بالموقف، ومن جرّاء السياسات الخاطئة لهؤلاء القادة والزعماء أصبحت الأمّة في شللٍ تامٍّ من جميع النواحي: سياسياً وعسكرياً واقتصادياً واجتماعياً، ولقد صدق فينا قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "يوشك أن تداعى عليكم الأمم، كما تتداعى الأكلةُ إلى قصعتها، قالوا: أو مِن قلةٍ نحن يومئذٍ يا رسول الله؟ قال: أنتم يومئذٍ كثير، لكنّكم كغثاء السيل"(٩١).

ويصف شاه عبد العزيز هذه الحالة بلباقة عالمٍ متفقهٍ في الدين، وطبيبٍ مجرِّب للحياة ومحللٍ سياسيٍّ محنّكٍ فيقول(٩٢):

فإذا جاء عندهم فـــزعُ أمرٍ ولأنْ تجهّزوا بخيـــامِ
ثمّ لّما تمالئوا(٩٣) جمعـــــاً يستشيرون رأي كلِّ حـــرامِ
لم يقيموا على مقـــــررةٍ(٩٤) ثمّ يستقسمـون بالأزلامِ(٩٥)
لم يريدوا تداركاً لعـــدوٍ بل يريدون سدّ بـاب ملامِ
إنْ شكاهم إليه أحـــدٌ دفعـوا لومـةً(٩٦) بزور(٩٧) الكلامِ

ثم إن شاه عبد العزيز يذكر أن النصارى من الإنجليز (الفرنج) قد أتوا إلى هذه البلاد وأظهروا أنفسهم بأنهم أصحاب الأمانات، وأنهم يوفون بالعهود والعقود، ويأخذون العشور والخراج بالعدل

٩١- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري، **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه**، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، باب من الدين الفرار من الفتن، ج ١، ص ٢٣.

٩٢- **حيات ولي**، ص ٦١٢.

٩٣- إذا تتابعوا برأيهم على أمر: قد تمالئوا عليه. انظر: **تاج العروس**، باب ملأ، ج ١، ص ٤٣٩.

٩٤- أي: قرار من القرارات.

٩٥- جمع زلم: وهي السهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها. **لسان العرب**، ج ١٢، ص ٢٦٩.

٩٦- في الأصل هكذا ولكن الأصوب أن يغير إلى "اللوم" وهو مصدر لام يلوم لوماً، واللومة اسم المرة المذكورة في البيت.

٩٧- يقال: زوّر الكلام، أي: زخرفه وموّهه، وزور الكلام في نفسه هيأه وحضره. **المعجم الوسيط**، ج ١، ص ٤٠٦.

والإنصاف باسم من وسموهم ووصفوهم بالإمام من قبلهم، ـ كل ذلك لكسب قلوب العامّة ـ ويقطعون الأراضي من أصحابها ويستولون عليها طوعاً، وإلا فكرهاً، فهذه هي حال البلاد والعباد، وقد بلغ السيل الزبى، وعيل الصبر، وتعدّى الأمر حد الأدب واللباقة في الكلام. فيقول(٩٨):

والنّصارى من الفرنج أتـــوا عُرفوا بالوفـــاء دَعيّ ذمامِ
يأخذون الخـــراج منتصفـاً باسم من وسموا باسم إمـــامِ
ويريدون اقتطـــاع المـــلك من ذوي الأرض صاحبي الأقوامِ
قد تعدّى الأمر عن حـــدِّ أدبٍ وتعدّى عن المـــقام كلام

فهل بعد هذه الغارات والقتل والسلب والفساد والدمار من مغيثٍ وناصرٍ ومعينٍ؟!! يتقي الله ويعيد إلى البلاد الأمن والاستقرار والطمأنينة، ويحكم بالعدل والإنصاف، ويقف سداً منيعاً وباباً موصداً أمام حملات وهجمات هؤلاء الأشرار.

ثم ينتقل الشاعر إلى مخاطبة قلبه وفؤاده ووجدانه بعتاب لطيف هادئ رصين، ويسأله في خفوت صوت، وينزل القريب منزلة البعيد في النداء، فيقول: كم تشكو الزمان! وكم هنا: خبرية وليست استفهامية؛ فمعناها: أيا قلبُ، كثيراً ما تشكو الزمان، لكن ماذا تنفعك هذه الشكوى؟! والحال أنك لاهٍ وغافلٌ عن مكارم لطف الله ورحمته ومنته.

وقديماً نطق الإمام الشافعي رحمه الله تعالى(٩٩) وغيره بمثل هذه الشكوى:

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا
ونهجو ذا الزمان بغير ذنب ولو نطق الزمان لنا هجانا

ثم إن الشاعر، مع كل هذه الدواهي، لا يفقد الأمل في الله سبحانه وتعالى ويجعله سلواناً وحلية للأوجاع والأوصاب والأسقام الحسية والمعنوية، فهو سبحانه وحده القادر على كشف الغمة وتغيير الحال السيّئ إلى أحسن الأحوال، فهو سبحانه كافٍ عباده المؤمنين المتوكلين عليه سبحانه وتعالى، والمستنصرين به والمتمسّكين بحبله في السرّاءِ والضرّاءِ.

ويظهر الشاعر بمظهر القوة والتمسّك بحبل الله سبحانه وتعالى، والاعتماد عليه أنه لا يمكن أن يغزو الهمُّ قلوب المسلمين، أو أن يفقدوا الأمل والرجاء، والحال أنهم يلوذون ويستجيرون برب قادرٍ

٩٨- **حيات ولي**، ص ٦١٣.

٩٩- **ديوان الإمام الشافعي**، جمعه وشرحه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ١٠٠.

بصيرٍ خبيرٍ عليمٍ بأحوالهم، وهو ليس عنهم بغافلٍ، فهو سبحانه وتعالى بنصره وتأييده مع المؤمنين الصادقين العاملين والمتمسّكين بدينه والذائدين عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

وينتقل الشاعر إلى بيان أن الكثرة الكاثرة من الأمم التي لا تؤمن بالله سبحانه وتعالى، ومع هذا كان لا خير فيهم ولا يرجى منهم البرّ والمعروف والخير للناس، فإن أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير أمّةٍ أخرجت للناس، ورسول الله صلى الله عليه وسلم خير الوسائل ـ كما يذهب الشاعر ـ التي يتوسّل بها إلى الله سبحانه وتعالى ليكشف ما نزل بالمسلمين من الغارات والهجوم والقتل من قبل السيخ ومرهت والأمم الأخرى المعادية للإسلام.

فإن نبيّ الله محمداً صلى الله عليه وسلم هو دار مقام للالتجاء والتمسك بدينه في وقت الشدائد والمحن، فهو هنا ضمّن قصيدته شطرين من قصيدة أبي طالب في مدح النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال:

وأبيضَ يُسْتَسْقَى الغَمامُ بوجهِهِ ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يلوذ به الهُلّاك من آل هـاشم فهم عنده في نعمة وفواضل

وهو هنا يقول: "يلوذ به الآلاف من أهل حاجة" فإن الناس عندما يقعون في المصائب والمشاكل فإنهم يتوجّهون ويتوسّلون بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى ربهم؛ لينقذهم من سوء الحال.

وهكذا بهذه الوسيلة المحمدية تستهزم الجيوش الكبيرة الكثيرة الجرارة التي لها صهيل ونقيع، وصوتٌ ودويٌّ عندما تتحرك إلى أرض المعركة.

وهذا يعني أنّ شاه عبد العزيز الدهلوي في الأبيات المذكورة يرى جواز التوسّل برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعد مماته؛ خلافاً لكثير من العلماء الآخرين ـ وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيمية ومدرسته ـ الذين لا يجوِّزونه وله قصيدة أخرى في مدح النبي صلى الله عليه وسلم يذكر فيها التوسّل واضحا، ويتوسّل به قائلاً:

أجرني سيدي من ضيم سقم أشد عليّ من وقع الحسام

صبرت عليه حتى عيل صبري وكاد يذيقني طعم الحمام

فمدحك رقيتي وشفاء دائي إذا ما خضتُ في لجج السقام

****